تاريخ سوريّة منذ الخليقة الى ايّامنا . وعلى رأيي يجب على كلّ لبناني وسوريّ ان يحوز كلّ معلومات هذا الكتاب فانهُ افضل كتاب وُضع للتعليم المدرسيّ وهو يُطلعنا بوجز الكلام عن مآثر وطننا ويوقفنا على ما فلتناهُ وناله اجدادنا من كرم فرنسة الحامية والصديقة على مدى الاجيال . فيبعث فينا شكرًا مضاعفاً نحو تلك الدولة التي خلّصتنا من نير الاتراك ونحو معلّمينا الكرام الذين لا يزالون رافعين لواء العلم ومنار الدين

(تنبيه) قد نشرنا بالافرنسيّة في عدد جريدة الريقايل الصادر في ٨ شباط ١٩٢٤ مقالةً انتقاديّة في التاريخين المذكورين

رجل الفضل وضحيّة الجور

المرحوم جبرائيل غرغور

نظر تاريخي للاب لويس شيخو اليسوعي

انَّ بين ضحايا العهد الحميديّ المشئوم بعضاً من نخبة الرجال الذين خدموا الوطن باخلاص ونشاط ثمَّ قلب لهم الدهر ظهر المجنّ فأذاقهم مرَّهُ بعد حلوهِ وعلقمهُ بعد شهدهِ

ومن جملتهم احد اماثل اوطاننا رجل العزّ والمروّة جبرائيل افندي غرغور والد جناب وطنيّنا الفاضل فائق بك غرغور المحامي الشهير . مضى وبقي ذكرهُ محبوباً في صدر اهلهِ اذ لم يسمح جور الاعداء اذ ذاك بنشر اعمالهِ بعد أن نفوه الى اقاصي مملكتهم وأعملوا فيهِ سيف الغدر كألوف عادتهم . واليوم اذ عاد الأمن الى نصابهِ لا يسعنا ان نضرب صفحاً عن ذلك الرجل الهمام وقد أطلعنا آلهُ الكرام على بعض مآثرهِ فنرويها لقرائنا على صفحات هذه المجلّة

*

اصل جبرائيل غرغور ونسبهُ يرتقي اصل هذه العائلة الى اواسط القرن الثامن

عشر اذ احتلّ مدينة يافا ليتعاطى فيها التجارة احد ابناء طائفة الروم الكاثوليك المدعوّ ابرهيم غرغور منتمياً كما يُظن الى احد اجداده المسمى غريغوريوس وفي لسان العامة غرغور. ولم يكن اوانئذٍ في يافا رعيّة من طائفته يخدمها احد كهنتهم. فكان ابرهيم يتمم واجباته الدينيّة في كنيسة الآباء المرسلين من ابناء القديس فرنسيس دون ان ينتحل الطقس اللاتيني. وكان ابرهيم مثالاً في حسن السيرة والتقوى وعلى سنن الفضيلة رأى ابنهُ المدعوّ نيقولا الذي خلفهُ واشبههُ في سلوكه وتقاهُ كما شهد على ذلك سيادة المطران فلردل القاصد الرسولي على سوريّة في رقيم ايطالي اللهجة كتبهُ سنة ١٨٣١ صرّح فيهِ انّ اسرة نقولا غرغور قديمة العهد ومعروفة بتقاها وانّ نيقولا كان اذ ذاك ممثلاً لدولة ايطالية في يافا وقد دعاهُ حامي المسيحيّة. ومثلهُ اعلن الطيّب الذكر البطريرك اكليمنضوس بجوث في اعلامهِ سنة ١٨٦٣ حيث قال «ان عائلة غرغور من العائلات الاولى الممتازة بالقدميّة والاعتبار»

وقد توفّق نقولا في اشغالهِ التجاريّة في يافا واقترن فيها بالزواج الشرعي بامرأة فاضلة تدعى مريم ابنة ابراهيم عكّاوي من بنات ملّتهِ الكاثوليكيّة

﴿ولادة جبرائيل ونشأتهُ﴾ وُلد جبرائيل في ١٣ شباط من السنة ١٨٣١ وحرت حفلة اعتماده بمياه المعموديّة في كنيسة الرهبان الفرنسيسيين في ٢٠ من الشهر المذكور كما هو مدوّن في سجلّ كنيسة يافا بيد راعيها الاب ميخائيل الراهب الفرنسيسيّ ولدينا صورتهُ. وكان وكيلا العماد (العرّابان) قسطنطي غرغور واختهُ مريم

ولمّا بلغ الولد اشدّهُ ارسلهُ والداهُ الى مدرسة الآباء اللعازريين العامرة في عين طورة حيث تلقّى العلوم الابتدائية وتخرّج في آداب اللّغتين العربية والافرنسية الى السنة ١٨٤٤ (١٢٦٠ هـ)

ثمّ عاد جبرائيل راجعاً الى وطنهِ واحبّ ان يدرس الاحكام الشرعيّة ليتعاطى مهنة المحاماة في محاكم بلادهِ. ولم يكن في ذلك الوقت مكاتب عموميّة لتعليم الفقه فرغب الى الشيخ حسين افندي الدجّاني الفقيه الاختصاصي بان يعلّمهُ احكام الشرع واصول الفقه ولهُ فيهما الباع الطولى فرضي بهِ ولم يزل جبرائيل يتردّد على ذلك الاستاذ البارع حتى اتقن الفقه واصولهُ ونال اجازة معلّمهِ

﴿وظائفهُ في القدس﴾ كان اوّل ما عهدت اليه الدولة العثمانيّة أن استدعاهُ

اربابها في السنة ١٨٤٨ (١٢٦٥ هـ) الى القدس الشريف فتعيَّن ملازماً في قلمي التحريرات ومجلس الادارة الكبير فعُرف مذ ذاك ببراعته في اشغاله

وفي السنة التالية (١٨٤٩–١٢٦٦ هـ) تعيَّن بمصادقة نظارة المالية كاتباً اوَّل لمجلس ادارة اللواء الكبير براتب شهري بالغ الى ٢٥٠ غرشاً وبقي في تلك المأمورية مدَّة استمال في اثنائها جميع رؤسائه بصفاته الحسنة وامانته وحذقه في مزاولة الامور كما يُستدل عليه بالبيورلدي المعطى له في تاريخ ٢٨ محرَّم ١٢٧٠ هـ (١٨٥٣) من متصرَّف القدس وهذا حرفهُ :

صدر مرسومنا الى كلّ واقف عليه وناظر اليه

ان رافع بيورلدينا هذا « جبرائيل افندي غرغور » كاتب مجلس لواء قدس شريف المذكور بكافَّة مدَّة تصرُّفنا بولاية سنجق القدس وهو مقيَّد بمأطات (كذا) خدماته بكل امانة وصداقة واستعداد تام ومن اصحاب الدراية بفنّ الكتابة فلذلك مأمول من ذوي الشأن والمروءة والاحسان ابقاء المذكور بخدمته ما دام سالكاً منهج الاستقامة وتأدية الخدامة المفروضة على ذمَّته وبحسب استعداده بخدمته اعطينا بيده هذه شهادتنا من ديوان الولاية قدس شريف ونابلس وغزَّة للعمل بموجبه

في ٢٨ محرَّم سنة ١٢٧٠
الامضاء بختم
السيد احمد حافظ

وكان في غضون ذلك بلغ مسامعَ قنصل دولة اسبانية الفخيمة خبر صاحب الترجمة « بيُو دي اندريس غرسيا » (D. Pio de Andrés Garsia) فدعاهُ ليكون ترجماناً اوَّل في قنصليَّته لتضلُّعه باللغات الاجنبيَّة والوطنيَّة معاً فلبَّى دعوتهُ وتولَّى اشغالها بما عُرف به من النشاط والاستقامة . ولمَّا فارقها زوَّده قنصلها بخطّ من يده في الاسبانية يجاهر فيه بما اختبرهُ من حسن القيام بكافَّة واجبات مأموريته واحرازه لرضاهُ ورضى دولته . ولا يزال الكتاب محفوظاً وقد اطَّلعنا عليه وعلى البيورلدي السابق ذكرهُ

ولم يفارق جبرائيل القدس بل انتقل الى القنصلية الروسيَّة التي انتدبتهُ ليقوم هناك بحاماة تبعتهم لما عُرف به من التضلُّع بالشرع العثماني . فلزم تلك المأموريَّة وتعاطى كل

المحامي البارع وعضو امانة الاسنانة

جبرائيل غرغور افندي

١٨٣١–١٩٠٧

مهامّها الى تشرين الثاني سنة ١٨٥٩ (١٢٧٦ هـ) حيث قضت عليهِ الاحوال ان يبرح القدس الشريف ويحضر الى بيروت لاسباب لا محلّ لذكرها. وقد ارسل اليهِ قنصل روسيّة في القدس رقيماً افرنسياً في تاريخ ١٠ تموز ١٨٦٠ موسوماً بالعدد ١١٧ يشهد فيهِ على ما وجدهُ في جبرائيل من «سعة المعارف والحذق التامّ والامـانة الثابتة في المهنة الموكولة اليهِ» والكتاب مختوم بامضـاء القنصـل المسمّى دُرْغوبوجينوف (Dorgoboujinof)

سكن بيروت نحو ثلث سنوات الى أنْ قضى فيها الاشغال التي اوجبت مجيئهُ اليها فلمّا اتمّها عاد الى القدس الشريف في ربيع سنـة ١٨٦٣ (اواسط ١٢٨٠هـ). وقد احبّ بطريرك الروم الكاثوليك السعيد الذكر غبطة اكليمنضوس بحوث ان يدفع اليهِ اعلاماً لكلّ مطّلع هذا حرفهُ :

انّ ناقل اسطرنا هذه حضرة ولدنا الروحي العزيز المواجا جبرائيل غرغور هو من ابناء رعيّتنا الاورشليميّة الروم الملكيين الكاثوليكيين المباركة من الميلات الاولى الممتازة بالقديمّة والاعتبار فيما بين سكّان المدينة المقدّسة وياقا وذو دراية في جملة معارف وصـداقة وقد حاز المدائح في جملة مأموريات خدم بها لدى الـدولة العليّة السنيّة وفي قنصليّات بعض الـدول الاوروبيّة المفخمة ويدهِ منهم صكوك الشهادة الحسنة بجودة سراه واستقامة وامانتهِ. فاقتضى والحالة هذه ان نراعدهُ باعلامنا الحاضر معلمين لدى الجميع حسن صفاتهِ وصداقتهُ وكفاءتهُ في حسن الإقدام بالمهامّ المعتبرة

أُعطي مجّاناً من ديواننا البطريركي في مدينة بيروت في ١٢ نيسان ١٨٦٣

(محلّ الختم) اكليمنضوس البطريرك الانطاكي والاسكندري والاورشليمي وسائر المشرق

*

﴿سفرهُ الى الاستانة واشغالهُ الاولى فيها﴾ رجع المرحوم جبرائيل غرغور الى القدس الشريف وبقي فيهِ بضع سنين يتعاطى اعمال المحاماة مشمولاً بثقة اهل تلك المدينة التي عرفت ما جُبل عليهِ من المناقب الفريدة والبراعة النادرة. الّا انهُ ما لبث ان لقي فيها محناً ومشقّات كدّرت صفاء حياتهِ فاضطرّتهُ بل اجبرتهُ ان يغادرها. وكان ذلك سنة ١٢٩٠ هـ (١٨٧٣م) في عهد السلطان عبد العزيز

فوجّه نظرهُ الى عاصمة البلاد اللقّية اذ ذاك بدار السعادة وهو يؤمل فيها تمام

النجاح بين ذوات من اعيانها يقدّرون الرجال حقّ قدرهم . فلدى وصوله استأجر لهُ بيتاً في حي بك اوغلي وسكنهُ وحدهُ مع خادمتين ثمّ قدم عليهِ اهلهُ بعد ذلك بزمان

وكان اوّل ما صرف اليهِ همّتهُ التعمُّق في درس التركيّة ليقوى على معاطاة مهنتهِ فيها دون عناء كما كان يتعاطاها في القدس

فلم يخب املهُ فانّهُ اصبح بعد زمن قليل يتكلّم التركيّة بسهولة بل بفصاحة . فشرع ذوو الدعاوى يُقبلون عليهِ لمحاماتهم امام المحاكم في الاستانة فاصابوا بهِ نجاحاً فذاع صيتهُ بين العموم وأشير اليهِ بالبنان

﴿الصحافي﴾ وكان مع اشتغالهِ بالمحاماة يكتب في الجرائد فصولاً رائقة جلبت اليهِ النظر وأنالتهُ حظوةً كبيرة بين ذوي الاقلام فصادقهُ احرار الاتراك وانتدبوهُ الى الكتاب في منشوراتهم

وكان في ذلك الوقت قد انتشر صيت الكاتب التركيّ البارع نامق كمال بك الذي نال بين قومهِ شهرةً واسعة بكتاباتهِ السياسيّة والادبيّة ففكّر بنشر جريدة دعا الى مشاركتهِ في تحريرها جبرائيل غرغور . وقد صدرت في اواسط سنة ١٢٩١ (١٨٧٤م) دعاها «عبرت» فظهرت فيها مدّة اربعة اشهر مقالات رائعة حرّة بقلم منشئها الذي كان معدوداً كرئيس الاحرار . وكانت الدولة في تلك الايّام في حالة من الاضطراب تضغط على اقلام الكتبة فقضت بتعطيل الجريدة وبنفي صاحبها . ولا بُدّ ان يكون عَلق في ذهن ارباب الحكومة شيء من التهمة بحقّ شريكهِ غرغور افندي

فعدل المترجم عن الكتابة في الجرائد ولزم مهنتهُ في محاماة الدعاوي الى السنة ١٨٨٦ فرأى ان يستدعي من السلطان عبد الحميد رخصةً لنشر جريدة يوميّة سياسيّة في اللغتين التركيّة والعربيّة . وكان لجبرائيل صديق من حاشية عبد الحميد وهو طبيبهُ دولة ماثروبني باشا . فوعدهُ السلطان بالاجابة الى طلبة غرغور افندي واعطائهِ الامتياز لانشاء الجريدة لولا انّ دسائس اعدائهِ حالت دون تحقيق امنيّتهِ

﴿المحامي﴾ كان جبرائيل غرغور طلق اللسان بليغ العارضة قوي البرهان متقناً للشرع الاسلامي الديني والتركيّ المدني فلمّا باشر في عاصمة الدولة بمحاماة الدعاوى ظهرت لوقتهِ براعتهُ في ذلك الفنّ الذي زاولهُ بنجاح عظيم مدّة نحو ثلثين سنة مع ما

وجدهُ في طريقهِ من الأَخصام الذين كانوا ينصبون لهُ المكائد لينجوا من مزاحمتهِ

ولو اردنا وصف ما ظفر بهِ غرغور افندي من الدعاوى التي تولّى محاماتهـا في محاكم الاستانة لطال بنا الكلام. وانّما نكتفي بذكر شيء من ذلك على سبيل المثال

واوّل دعوى اعرب فيها عن جدارته التامّـة فجعلتهُ في اعين العموم في المركز الاوّل بين المحامين دعوى «سيمون سيمونوفيتش» امين صندوق المصرف العثماني المتّهم بسرقة البنك المذكور فجرت محاكمتهُ في محكمة بداية الجزاء في بك اوغلي في شهر ايلول سنة ١٢٩١–١٨٧٤. فتولّى غرغور افندي الدفاع عن المذكور بصورة ادهشت كلّ الحضور وكان بينهم كبار مأموري السفـارات واصحاب الصحف وغيرهم من ذوي المقامات الرفيعة فلم يتمالكوا من المظاهرة بإعجابهم ومخالفة القانون الموجب الحضور بالسكوت فهتفوا سرارًا للمحامي وصفّقوا لـهُ التصفيق الحادّ فعجز رئيس المحكمة عن إسكاتهم (١

ولم يكن فوز المترجم في العام التالي باقلّ بهورًا في دعوى اخرى قامت بين صاحب جريدة «بصيرت» علي افندي وتنردور افندي قصّاب صاحب جريدتي «استقبال وخيال» وكان صاحب بصيرت وكّل المحاماة عن دعواه الى غرغور افندي وصاحب استقبال وخيال الى محام شهير حسن فهمي افندي (٢. وكانت مادّة الدعوى عبارة قرآنيّة اساءت جريدة بصيرت في وضعها حيث قالت في وصف ليلة جلوس السلطان انها «كانت ليلةٌ خيرٌ من ليلة القدر بألف شهر» فنُسب صـاحبها الى الكفر وطلب قصّاب افندي مجازاتهُ على فعلهِ. ثمّ التفتَ نظر الحكّام الى المسألة وهي دينيّة محضة والمدافعُ عن خصمهِ مسيحيّ. على انّ تلك الملحوظات لم تؤثر في ارباب المحكمة بعد ان سمعوا دفاع غرغور افندي واقتدارهُ في المحاماة فبرّأوا ساحة علي افندي واجروا الحكم على قصّاب افندي الذي لم يَسَعهُ الّا ان يجاهر بالثناء على غرغور وعلى بلاغتهِ في الدفاع (اطلب الأعداد ٢٧٠ الى ٢٩١ من جريدة خيال) فصدق فيهِ قول الشاعر

«والفضلُ ما شهدت بهِ الاعداء»

ويحسن بنا ان نذكر هنا انّ بعض اخصام غرغور افندي تآمروا عليهِ فأغروا بهِ

١) اطلب العدد ٣٠٥ من جريدة خيال المطبوعة في الاستانة في ٢٥ ايلول ١٢٩١ه

٢) وهو الذي تعين بعد سنوات وزيرًا للعدليّة ووزارات غيرها

الحكّام ليبطلوا قبولهُ في بعض الدعاوى. لكنَّ المترجم استعان باحكام قانون اصول المحاكمات الحقوقيّة الذي نُشر على اثر تلك المناقشات ولم يأنف من اقامة الدعوى على الحكام وكان اوّل من طرق ذلك الباب في الاستانة فربح دعواهُ وجرى الحكم عليهم في تاريخ ١٩ ك ٢ ١٢٩٥ (اوائل سنة ١٨٧٨) . فشكرهُ رصفاؤهُ على فعلهِ لتمكينهم من محاكمة الحكّام في عاصمة المُلك العثماني ان خالفوا القانون

وبقي المرحوم يتعاطى مهنة المحاماة مشهودًا لهُ من ذوي الانصاف بالمقدرة والاستقامة . وكان لا يهتمّ بالحصول على الرتب والاوسمة بيد انَّهُ بفضلهِ وجدهِ استوقف ابصار الدولة فنال من انعامها في ٢٨ جمادى الثانية ١٢٩٧ (حزيران ١٨٧٩) الرتبة الثالثة . ثم وُجّهت اليهِ الرتبة الثانية في ٩ رمضان ١٢٩٩ (تموز ١٨٨٠) ثم الرتبة الاولى من الصنف الثاني في ٢١ ذي الحجّة ١٣٠١ (تشرين الثاني ١٨٨٤) . وجاء في رقعة للمرويني باشا طبيب السلطان عبد الحميد انَّ جلالتهُ امر بترفيع رتبتهِ الى الاولى من الصنف الاوّل في ٨ شباط ١٨٨٦ . الّا انَّ هذا الامر بقي مكتوماً بمعاكسة اخصام غرغور افندي الى تاريخ ٢٢ محرّم ١٣١٢ (٢٧ تموز ١٨٩٤) حيث بلّغ ديوانُ همايون بالتاريخ المذكور الارادةَ السنيَّة لغرغور ونُشر الخبر في الجرائد

ومن الامتيازات التي نالها جبرائيل غرغور من السلطان عبد الحميد انهُ تعيَّن من غير طلبٍ منهُ عضوًا في امانة البلدة اي مجلسها (بشهر امانتي) وكفى بذلك دليلًا على ما كان لهُ من الاعتبار في اعين ارباب الدولة العثمانيَّة

وكانت شهرتهُ لا تزال يتّسع نطاقها يوماً بعد يوم . ولنا شاهد على ذلك في ما كتبهُ اليهِ الطيّب الذكر البطريرك غريغوريوس يوسف ليفوّض اليهِ الوكالة عنهُ في الاستانة وذلك في تاريخ ١٩ ت ٢ ١٨٩٥ وكتابهُ مذيّل بختمهِ وهذا منطوقهُ :

جناب الاجل الكريم الماجد سعادتلو جبرائيل افندي غرغور المحترم السلام والبركة الرسوليَّة

« بناء على ما لنا في شخص سعادتكم من الثقة ومن الاعتقاد بالغيرة الجنسيَّة والحميَّة الملّيَّة وما لكم من الاقتدار والنفوذ المؤيّدين دائمًا بالفوز والاقبال ان شاء الله . وبالنظر الى خلوّ الوكالة البطريركيَّة في دار السعادة العليَّة برفاة المرحوم المأسوف عليهِ فتح الله افندي وكيلنا قد رأينا ان نعهد هذه الوكالة الى اهليَّتكم المشهورة ولياقتكم المذكورة . وكلّ أملنا

انكم ايها الابن الكريم تتلقون هذه الثقة الابوية بمزيد الاخلاص واجراء المهم بقضاء صوالح بطريركيتهم التي هي صوالح ملتكم. وليس علينا ان نحرّض سعادتكم اكثر من ذلك لانكم ابن الملة بل امتن اركانها. انتم ابن البطريركية وولدنا المخصوص بل نعدّكم حجرًا كريمًا في تاجنا فنحن نجرون من الهم فانهُ اليكم عائد والى جنيتكم راجع. وما علينا الّا الدعاء لله بان يأخذ بيدكم ويوفق مساعيكم. وهذا التقرير الذي يقدّم بشأنكم الى النظارة الجليلة سلّمناهُ مع هذا الى ولدنا الحبيب فائق افندي ليرسلهُ الى سعادتكم مع اوّل بريد. واذ نتوقع اخباركم السارّة نزوّدكم الآن ادعيتنا الابوية وبركتنا الرسولية تكرارًا

١٩ ت ٢ سنة ١٨٩٥ بيروت

محلّ الختم

غريغوريوس البطريرك الانطاكي الاسكندري الاورشليمي وسائر المشرق

وكان المرحوم لا يقصر خدمهُ على ذوي ملّتهِ بل كان كلّما استطاع اليهِ سبيلًا يقدّم الخدم المشكورة لمن يلتجئ الى همّتهِ من اي ملّةٍ واي دين كانوا وقد وقفنا في يد ولدهِ فائق بك على الرقعة التالية لاحد ابناء المسلمين نرويها هنا تنويهًا بما كان لهُ من التجأة والاعتبار عند العموم قال :

« أبا فائق اعلم وحقّ امتّة العرب التي لا اسبي ايديك البيضاء ما دمتُ في قيد الحياة لانهُ ما رأيتهُ من وفائك قد جعلني غريق امتنانك عدمُ رأسمٍ واتخذ لك في سوريّة صديقًا مثلي يفدي روحهُ لقاء صالحك ويستخدم دونهُ اهلهُ وعشيرتهُ وعشيرة اصدقائهِ »

وفي هذا القليل ما يكفي لاثبات مروّة المرحوم غرغور افندي وما كان لهُ من الايدي البيضاء في خدمة مثل الذات المشار اليهِ وغيرهِ كثيرين من ابناء هذا الوطن.

﴿انقلاب الدهر على المترجم بتحامل الاخصام﴾ غنيٌّ عن البيان انَّ الدهر غدّار يتحامل بالخصوص على ذوي الرفعة والشان اذ لا يطيق ما لهم في وجههِ من السموّ والجاه فيبعث في مناوأتهم من لم يتمكّنوا من الحظوة بشرفهم. وهذا ما حلّ بغرغور افندي فانَّ ما نالهُ من الفوز في الدعاوى التي دافع عنها أثار عليهِ بغض المحامين الذين عدُّوا انتصارهُ كتذليل لشخصيهم واهانة لوجدانهم. ومثلهم الذين حُكم عليهم بتلك المحاكمات وكان بينهم قوم من اهل الوطن ممّن كان أولى بهم ان يفتخروا بنجاح مُواطنهم فانحازوا الى اعدائهِ فكلّ هؤلاء سعوا غير مرّة لمناهضتهِ وهتك

عرضهِ الَّا انَّ دسائسهم في حقّهِ بقيتْ دون مفعول سنين طوالًا لاسيما اذ رأوا ما نالهُ من فضل الذات الشاهانيَّة من الامتيازات

على انَّ السلطان عبد الحميد بلغ في ايَّام ملكهِ وخصوصاً في السنين الاخيرة من حكمهِ الى حالة من الخوف على حياتهِ ودولتهِ لم تدع لهُ راحةً ولا قرارًا فبثَّ الجواسيس في كلّ انحاء العاصمة ليوقفوه على كلّ من تقع عليهِ شبهة الفتن او سوء النيَّة . فانتهز اعداء غرغور افندي تلك الفرصة ليوقعوهُ في فخّهم . وحيث كانت الوشاية اقرب طريق للبلوغ الى مآربهم وشَوا بهِ كذباً ونسبوا اليهِ المكيدة ضدَّ السلطان زاعمين انهُ يكتب سرًّا اوراقاً مضرَّة بجلالته وانَّ بيتهُ مملوء بتلك الاوراق . ولا يخفى انَّ محامياً مثلهُ قديم العهد في دار السعادة كانت لهُ مكتبة واسعة ومعظمها عبارة عن وثائق وحجج شرعيَّة واعلامات نظاميَّة واوراق ماليَّة وتعهُّدات متبادلة بينهُ وبين الزعفاء . وكانت تُرسل اليهِ الجرائد والمجلَّات لتنفيذ اشغال المراسلين او لصداقة شخصيَّة سابقة

وما زاد الطين بلَّةً انَّ غرغور افندي اصيب في تلك الاثناء بمرض اضطرَّهُ الى ان يأوي الى بيتهِ ويكفَّ موقتاً عن الشغل . فأُرسلت اليهِ بمكيدة من اعدائهِ جرائد سياسية ممنوعة لم يسمح لهُ المرض بكشفها وتسليمها الى المحلّ الايجابي

﴿توقيف غرغور بك ومحاكمتهُ﴾ بلغ امرُ الاوراق مسامع عبد الحميد فصدرت ارادتهُ باجراء التحرّيات المشدَّدة . وقد وصف احد الوطنيين دخول مأموري الحكومة فجأةً في دار غرغور افندي في بك اوغلي في حيّ «آينه لى چشمه» وهو حضرة الوجيه والاستاذ الفاضل نجيب ابو صوَّان رئيس محكمة التمييز الاوَّل في لبنان الكبير وكان اذ ذاك في الاستانة ودخل على جبرائيل ليعودهُ في مرضهِ . قال في رسالة كتبها مؤرخًا في ٢٩ ت٢ ١٩٢٣ اجابةً الى طلب ابنهِ فائق بك وها نحن ننقل منها تفاصيلها المدقَّقة قال :

سيدي الفاضل الافخم فائق بك غرغور دام بالعزّ والنعم

« جوابًا على كتابكم المتقدّم اعرض انَّهُ بين العشرين والثلثين من شهر كانون الثاني سنة ١٩٠٣ – ولا يخطر اليوم على بالي تمامًا – في اثناء المدَّة التي كنتُ أُداوم بها على المكتب الشاهاني بدار السعادة لتلقّي علم الحقوق وكنتُ مقيمًا في ترل لوكمبرج . صُدف لي انّي ذهبتُ عند

الساعة السادسة او السابعة افرنجيَّة في ليلة يتخلَّلها المطر لزيارة المرحوم والدكم في البيت الذي كان يسكنهُ في حيّ آينه لى جشمه في البك اوغلي وراء دار السفارة الانكليزيَّة فوجدتهُ منحرف المزاج يشكو من اوجاع في صدره

« وما كاد يستقرُّ في المقام لديه الَّا ودقَّ جرسُ القزل ودخل البيت بغتةً خمسة عشر شخصاً او اكثر من مأموري الحكومة اتذكَّر منهم متصرَّف بك اوغلي حمدي بك ومدَّعي عمومياً طانيوس افندي ومأمورين آخرين بينهم قومبيرجيَّة واقفار بوليس انتشروا في البيت وحولهُ . ودخل الى غرفة الاكل التي كنَّا فيها المتصرَّفُ والمأمورون الذين في معيَّتهِ وخاطبوا المرحوم قائلين لهُ انَّهم آتون للتفتيش لانهُ نُسب اليهِ انهُ محتفظ باوراق مضرَّة بحقّ الحضرة السلطانيَّة الخ

« فسلَّمهم مفاتيح الغرف فدخلوها واخرجوا منها بعد مدَّة كتباً واوراقاً وجرائد وضموها في كيسين (جوالين) كبيرين او ثلاثة اكياس وختموها باختامهم وختم المرحوم وحملوها بعربات اتوا بها وذهب اكثرهم بعد ان بقي بعض افقار البوليس للمحافظة فاستغنمتُ هذه الفرصة وانسللتُ من هناك وتوجَّهتُ مسرعاً الى تزلي حيثما لبثتُ قليلاً لتمزيق واحراق اوراق كانت تُعدّ مضرَّةً في تلك الايَّام السوداء

« ورجعتُ من ثمَّ الى بيت المرحوم استطلعُ خبرهُ فلم أجدهُ فيهِ وعلمتُ انَّ بعض كبار المأمورين المذكورين رجعوا اليهِ بعد ذهابي فاسروهُ زعْم ضمنهِ وعجزوهِ ان يرافقهم الى دار الحكومة فلم يقبلوا لهُ عذراً ولا رضوا ... الى خبر منهُ للحاضرين عنده ان ترسلا اليهِ فرشتهِ للنوم لانهُ كان قد رُخّص ... التوقيف . فعدتُ الى منزلي مخنثياً للغيور وصرتُ اترقَّب احوالهُ سرَّاً فبلغني انهُ حُكم عليهِ في اليوم الثاني بالحبس والتوقيف . . »

ومما تحقَّقهُ بعد ذلك جناب ابنهِ فائق بك انَّ توقيف المرحوم والدهِ كان في ليل ٢٨/١٥ كانون الثاني ١٩٠٢ (١٩ شوال ١٣١٩) . وفي اليوم التالي جرت المحاكمة بصورة خفيَّة وحُكم عليهِ بالحبس مدَّة ثلاث سنوات من تاريخ توقيفهِ وبقي الحكم محفوظاً الى ان حصل ابنهُ المذكور على صورة مصدَّقة عنهُ في اواخر السنة الماضية في ١١ تشرين الاوَّل ١٩٢٣

فممَّا ورد في هذا الحكم ذكرُ بعض جرائد او كتب تبلغ الخمسة عشر عدَّاً وذلك ما وجدوهُ من المحظور في جملة كيسين او ثلاثة اكياس (جوالات) من الاوراق التي ضبطوها . وانَّما هي بعض اعداد جرائد وكُتُب سبقت عهد السلطان عبد الحميد والباقي منها ممَّا حرَّرهُ كتبةٌ من كبار مأموري الدولة ذاعت كتاباتهم لدى الخاصّ والعامّ مع اعداد من جريدتي تريبونا الايطاليَّة والماتن الافرنسيَّة وكتاب افرنسي في السياسة العثمانية ولاسيَّما الرسم الفوتغرافي لناظم كمال بك صديقهِ المتوفَّى منذ امدٍ

مديد في الوقت الحاضر فهذا مجمل ما عدّدوهُ في استنطاق المرحوم فلم يذكر انَّ البعض منها كانت عنده وانَّما لم يجد في حفظها محظوراً والبعض الآخر أُرسل اليهِ في مرضهِ فلم يمكنه الاطّلاع عليها لتسليمها للحكومة . الَّا أنَّ اعداءهُ لم يشاؤوا الَّا الحكم عليهِ تشفّياً وانتقاماً وتقرُّباً الى جلالة السلطان واكتفوا في اعلام الحكم بذكر «اوراق فاسدة» دون ان يذكروا عبارة او نقرة في الجرائد والكتب المذكورة تثبت وجود شيء يمسُّ الحضرة السلطانيّة

وفي اليوم التالي لصدور الحكم (٢٩ ك ٢) أُرسل غرغور افندي على باخرة نمساويّة بصفة احد الجُناة مرفوقاً باثنين من الشرطة يحملان المذكرة الآتية من شفيق باشا ناظر الضابطة معرَّبةً :

انَّ جبرائيل غرغور متصل من عضويّة امانة البلدة ومحكوم عليهِ بالمحاكمة بالحبس مدَّة ثلاث سنوات لاشتغالهِ باوراق مضرَّة وفساديّة . وبما انهُ ذاتاً من ارباب الفساد وبقاؤهُ هنا بنظر الضابطة وُجد غير سالم من المحذور فلاجل اكمال مدَّة محكوميَّتهِ في حبس قسطموني قد صار اغرامهُ محفوظاً ومرفوقاً باللازم شيربن اغا والجاويش علي بناء بعد اكمالهِ مدَّة الثلاث سنوات في حبس قسطموني تتقرَّر المفصلة الواجب اجراؤها بحقّهِ . . .

﴿نفي غرغور ووفاتهُ﴾ كان جبرائيل يوم حُكم عليهِ بالحبس والنفي بالغاً ٧٢ سنة وبقيت اخبارهُ مذ ذاك الحين مجهولةً الى سنة وفاتهِ وانَّما أطلعنا جناب نجيب افندي صوَّان على شيء منها في كتابهِ السابق ذكرهُ قال :

« وبعد ان مرَّ على توقيف المرحوم خمسة ايَّام اذ وصلني كتابٌ منهُ عن آينه بولي على شطوط البحر الاسود خطَّهُ بقلم الرصاص يقول لي فيهِ انهُ كتبهُ خلسةً في بيت الخلاء لانهُ ممنوع عن الاختلاط والكتابة وانهُ فاقد الاهوال في سفرتهِ من الاستانة الى هناك وهو مرفوق بالزاندرمة وانَّ الثلوج تتساقط وانهُ رغم رزح قواه تحت حمل حمَّى تتجاوز درجة الاربعين فانهُ على اهبة السفر ركوباً على الخيل الى قسطموني في الداخليَّة وانهُ توسَّل مبثّاً الى الضابط الذي يخفره بأن يؤخر السفر بالنظر لمرضهِ لوقت آخر وانهُ لا يعلم اذا كان وهو في هذه الحالة من الانحطاط يصل سالماً الى القسطموني وانهُ يرجوني ان اهتمّ باموره وأُخابره بطريقة امينة . اما هذا التحرير فقد سُلّم اليَّ من احد افراد عائلة نمسويَّة دوروثا (Drossa) أُرسل اليهِ من احد اقاربهِ وكيل البواخر النمسويَّة في آينه بولي منتوفاني (Mantovani) فجاوبتهُ بالطريقة نفسها . وما كاد يمرُّ وقت قليل على هذه الحادثة والمخابرة وأخذ جواب منهُ عليها الَّا وداهمني امر استحضاري امام ناظر الضابطة شفيق باشا — وهو حلبي على ما يباق بذهني — فاقهمني كدره

مني وان البوليس السرّي وقف على مخابراتي مع المرحوم وامرني متهدداً ان اشتغ عنها . . ولولا المداخلات القويّة التي سمت لصيانتي لاصابني من جرّاء ذلك ضرر فاحش . . . هذا ما رأيتُ ان اعرضهُ بوجه الاختصار . . .

محلّ الامضاء

نجيب ابو صوّان

فلمّا بلغ امر نفي غرغور بك وحبسهِ مسامعَ ابنهِ فائق بك راجع هذا كثيرين من اصحاب المقامات والمناصب راجياً توسُّطهم لدى الحضرة السلطانيّة للحصول على العفو والافراج عن والدهِ الشيخ الجليل . وقد كرّر ثانياً وثالثاً الرجاء على الذين كانوا عالمين حقّ العلم انّ والدهُ لم يألُ جهداً في خدمتهم وترقيهم فنال بعضهم ارفع المراتب كرتبة الوزارة وكانوا قبل ذلك يقسمون للمرحوم انهم يفدونهُ بنا عزّ وهان . الّا انّ مساعيهُ لم تأتِ بنتيجة

وبقي المرحوم في حبس قسطموني وفيهِ توفّي بتاريخ ٦ رمضان ١٣٢٥ ١٧ تشرين الاوّل ١٩٠٧ كما ثبت بقيود ولاية قسطموني الرسميّة ومديريّة ايتامها ومحكمتها الشرعيّة . امّا مديريّة الحبس فانها قالت بعدم وجود قيد لاسم جبرائيل غرغور ولا لوفاتهِ ما يدلُّ على ان الحكومة او الاستانة كانت مصممة النيّة على عدم ارجاعهِ حيّاً للاستانة فاصدرت تعليماتها السرّيّة بقتلهِ ولم يكن هناك مضبطة ولا تقرير طبي بوفاتهِ رحمهُ الله

وقد بارك الله عائلة غرغور افندي ولا يسعنا هنا ان نثني على ولدهِ فائق بك مع ما عُرف بهِ من الفضل والشهرة في هذه المدينة مع خدمهِ المتعددة لوطنهِ وخصوصاً مدّة رئاستهِ محكمة تمييز دائرة الاستدعاء . وممّا افادنا عن آثار والدهِ انهُ سعى ليحصل على شيء من اوراق الفقيد ومكتبتهِ فذهبت مساعيهِ ادراج الرياح . ومن المقرّر انهُ كان بين تلك الآثار تآليف نادرة كفى بذكر توراة قديمة وصفناها في العام الماضي في المشرق (٢١[١٩٢٣]: ١٤١–١٤٢) ورسمنا احدى صفحاتها نقلاً عن صورة فوتغرافيّة ارسلها الينا المرحوم شكري باحوط وتاريخ النسخة سنة ٧٥٦ه (١٣٥٥م) . وقد فُقد هذا الكتاب الثمين ويا ليت احداً يمكنهُ ان يطلعنا على شيء من اخبارهِ

وقد افادنا جنابهُ ايضاً انهُ كان للمرحوم غرغور تآليف بقيت في عالم الخفاء لم يُنشر منها سوى كتاب عنوانهُ حقوق الدول كان وضعهُ مع الكاتب الشهير كمال باشازاده سعيد بك استاذ حقوق الدول في المكتب الملكي فاتفقا على نشرهِ في الاستانة وقد طُبع سنة ١٢٩٩هـ بامضاء كلٍّ منهما

امَّا باقي تآليف المرحوم غرغور افندي فقد لعبت بها ايدي سبا فانَّ مأموري الحكومة يوم تحرَّوا تفتيش بيتهِ لم يبقوا ولم يذَروا فجميع المخطوطات قد ذهبت ولم يبقَ منها اثر الَّا انهُ وُجد بين الاوراق التي ظنر بها موخَّرًا فانتويك مسوَّدات تدلُّ على ان المرحوم شرح باللغة التركيَّة مجلَّة الاحكام العدليَّة شرحاً يمتاز عمَّا سواه فاكتفينا بالاشارة

ونختم هذه الاسطر الوجيزة وهي برضٌ من عدّ شاكرين لمن أتانا بالفوائد السابقة مع الاعلان بحمدهِ تعالى الذي رفع عنَّا نير الحكومة العثمانيَّة الذي ضحَّى في سبيل مآربهِ رجالًا فضلاء كصاحب الترجمة اجزل الله عليهِ ثواب المظلومين وجعلهُ قدوة صالحة في استقامتهِ وبرّهِ لاهل وطنهِ

المخطوطات العربيَّة لكتبة النصرانية

للاب لويس شيخو اليسوعي (تابع)

حرف الباء

٨٢٣ ﴿بارد﴾ السيد جراسيموس مطران صيدنايا ومعلولا وزحلة الارثوكسي المتوفَّى سنة ١٨٩٩ (اطالب الآداب العربيَّة في القرن التاسع عشر ٢ : ١١٠) . عُني بتعريب وتنقيح كتب كنيستهِ الطقسيَّة ومن آثارهِ رواية اقرار بيلاطس وتعريب كتاب خلاص الخطأة وخطب دينيَّة

٨٢٤ ﴿البازجي﴾ الشيخ ابراهيم اللغويّ الشهير ابن الشيخ ناصيف وقرينهُ في